«مونتادي كونها» بذريعة مساعدة حاكم البصرة ضد شيخ الجزائر . وقد لفت هذان الحدثان : عودة الاحتلال الايراني الى العراق والتهديد البرتغالي لرأس الخليج العربي، نظر السلطان سليمان القانوني الى خطورة الحالة التي تهدد ظهر الدولة العثمانية نظرا لسلسلة المحالفات السياسية والعسكرية بين الصفويين والقوى الاوربية ، في وقت كانت فيه الدولة منصرفة الى قتال الامبراطورية الرومانية المقدسة في شرق اوربا والبحر المتوسط وشمال افريقيا . ولهذا بدأ السلطان يفكر جدياً في مد سلطانه على العراق . وأخذ بالاستعداد لارسال حملة كبيرة الى ايران قدر لها الاستيلاء على بغداد وبقية العراق في نهاية عام ٩٤١ هـ / ١٥٣٤ .

مكتبة محمد
كلية المناهج للدراسات

عهد الحكم العثماني الأول

خطط العثمانيين العسكرية

في مطلع ربيع الثاني ٩٤٠/١٥٣٣ ، أصدر السلطان سليمان القانوني أمره الى الصدر الاعظم ابراهيم باشا بالتوجه على رأس قوة من ٨٠,٠٠٠ رجل الى اذربيجان . ونجح هذا في اختراق اذربيجان واستولى على تبريز في تموز ١٥٣٤ . ولتحقيق نتيجة حاسمة ضد الصفويين ، سار السلطان على رأس جيش في ذي القعدة من السنة نفسها متجها الى تبريز . وفي نهاية ربيع الاول ٩٤١/١٥٣٤ ، التقى السلطان بصدره الاعظم قرب تبريز . ومن هناك تحرك على رأس القوات العثمانية متجها الى السلطانية جنوبي بحر قزوين للقاء طهماسب والاستيلاء على عاصمته قزوين والاجهاز على الدولة الصفوية . واوقع هزيمة كبيرة وماحقة بالجيش الصفوي بالقرب من نهر (قزل او زون) في الجنوب الشرقي من اذربيجان، وانفتح الطريق امامه الى قزوين . ولكن ما فشل فيه الشاه من مواجهة الجيش العثماني نجح فيه الطقس وسوء الاحوال الجوية ، حيث هطلت الامطار الغزيرة وتساقطت الثلوج واشتد البرد

وساءت الطرق فأصبح من العسير سير العربات وجر المدافع ، مما أثر كثيرا في نفسية الجنود العثمانيين ، فجعل تحقيق الهدف من التقدم امرا مستحيلا . فأمر السلطان جيشه بالانحراف نحو بغداد . ويعلق المؤرخ النهروالي على ذلك بالقول : « ... نزلت الثلوج الكثيرة وكأنها الجبال وتوارى الفرس امام السلطان وصار الشاه يخادع ويخاتل فلزم التوجه الى بغداد لصون الرجال» .

وسلك السلطان طريق همذان بهدف السيطرة على الطريق التي تربط بغداد بالشمال والشرق ، وبذلك قطعت القوات العثمانية امكانية نجدة الصفويين لحاميتهم في العاصمة العراقية ، وأثّر تقاعس طهماسب عن مواجهة الزحف العثماني سلبا في الامراء الخاضعين له والمنتشرين على الطريق الى بغداد ، فاعلنوا خضوعهم للعثمانيين . وعند اقتراب الجيش العثماني من بغداد هرب حاكمها محمد خان تكلو بعد ان يئس من وصول الامدادات اليه وثبت لديه ان الجيش الايراني الرئيس لم يجرؤ على خوض معركة توقف تقدم السلطان في قلب ايران نفسها .

احتلال بغداد وتوطيد السلطة الجديدة

ودخل الصدر الاعظم بغداد في ٢٤ جمادى الثانية ٩٤١/٣١ كانون الاول ١٥٣٤ ، وبعده بيومين دخلها السلطان سليمان وسط مظاهر الابهة والفخامة . ومن الجدير بالذكر ان السلطان لم يسمح لجيشه بدخول المدينة خوفا من عدم امكانية كبح جماحهم ، وشدّد على عدم الحاق الاذى بالاهالي ، فكسب رضاهم . كما سعى الى تعزيز ولاء السكان فقام بزيارات للاماكن المقدسة ورصد الاموال لها ، وامر ببعض المشاريع العمرانية ومن اهمها بناء سد ترابي لوقاية كربلاء من الفيضان وتوسيع الترعة المعروفة بالحسينية لجلب المياه

العذبة من الفرات اليها فامتدت في الاراضي المحيطة بها البساتين وحقول القمح . وهرع الأعيان وشيوخ القبائل والوفود من مختلف المدن الى بغداد لتقديم ولائهم للسلطان العثماني ، كما وصل بغداد الشيخ راشد ابن أمير البصرة مغامس بن مانع ، يعلن انضمام البصرة والحويزة ولورستان الى العثمانيين ، وبذلك سيطر العثمانيون على واحد من الطرق التجارية المهمة التي تربط الشرق الاقصى باوربا ، كما سيطروا على الرأس الشمالي للخليج العربي .

وترتبت عليهم نتيجة لذلك ، مسؤوليات دفاعية جديدة ضد البرتغاليين في منطقة الخليج العربي . فأمر السلطان باعداد الاسطول العثماني لمنازلة البرتغاليين الذين تزايد نفوذهم في البحار العربية ، ثم عيّن حاكم ديار بكر سليمان باشا الطويل والياً على بغداد ، وابقى فيها حامية مؤلفة من ١٠٠٠ جندي مزودين بالاسلحة النارية و ١٠٠٠ فارس ، وهيأ لها تموينا كافياً للدفاع عنها في حالة تعرضها لهجوم ايراني ، وعاد بطريق اذربيجان . واضطر الشاه طهماسب الى طلب الصلح ، ووافق سليمان على الطلب واخلى تبريز مقابل تعهد الشاه بعدم الاعتداء .

الادارة

بعد ان سيطرت الدولة العثمانية على العراق قسمته على أربع ولايات : بغداد ، وفيها ثمانية عشر سنجقا أو لواء اضافة الى المركز ، والموصل ، وفيها ستة سناجق ، وشهرزور وفيها واحد وعشرون سنجقا بما فيها القلاع ، والبصرة ، ولم يكن فيا سناجق لتركيبها العشائري وتجبى ضرائبها بالالتزام . وقد